بسم الله الرحمن الرحيم (القول على الله بغير علم)

بعد القرون المفضلة المتميزة بالاتباع والفقه في الدين، انحدرت الأمة في قرون التخلف إلى حضيض التقليد الجامد والتعصب المذهبي، وانحرفت فئة من جهلة العباد إلى التأسي ببعض اليهود والنصارى، وانحرفت فئة من المفكرين المناهضين للتقليد إلى إخضاع النصوص الشرعية لشطحات التفكير الوثني؛ تصديقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أمته: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع» قالوا: اليهود والنصارى، وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا أولئك؟» متفق عليه.

ولم يستثنِ الانحراف الفكري الفقه في كتاب الله ووحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فجاء من كبار مفكري الصوفية من يؤول الآية المحكمة: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ بما ناقض: ﴿إن الذين كفروا﴾ أي: ستروا محتدهم لله عن غيرهم ﴿سواء عليهم أأنذرتهم﴾ يا محمد ﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ بك لأنهم لا يأخذون إلا عني ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ فليس فيها إلا الله، ﴿وعلى سمعهم﴾ فلا يسمعون إلا مني ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ فلا يرون إلا إياي. (الفتوحات المكية لابن عربي جـ ١ ص ١١٥). ومثل هذا التحريف عن مواضع الكلام أول قول الله تعالى عن قوم هود: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾، ظنوا خيراً بالله وهو عند ظن عبده به، فأخبرهم بما هو أتم وأعلى في القرب من المطر، ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح﴾ فجعل الريح إشارة إلى ما فيها من الراحة، ﴿فيها عذاب أليم﴾، أي: أمر يستفزبونه إذا ذاقوه. (الفصوص والحكم لابن عربي ص ١٠٩).

ومن تأسى بالسلف الانحراف لهذا السلف، تدنس التفاسير (بعد عصر الصفوة) بالقصص الإسرائيلية، والروايات المكذوبة والسقيمة المضللة، من ذلك ما روي بغير سند صحيح عن فتنة داود عليه السلام، وقصة الغرانيق، وما أشبه ذلك. ومما أشكل بمحكم قول الله تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ قال السيوطي رحمه الله في تفسير الجلالين: «أخص الفعل ذاته، فليس بقادر» آخر الفائدة.

وفي هذا العصر الذي رغب فيه العرب عن لغة الكتاب والسنة واحتضنوا لغة الجريدة والإذاعة، استباح حمى التفسير فلم يتورع عنه المثقف الجاهل بشرع الله؛ استباحه الخطيب والواعظ والكاتب والطبيب والمهندس، وكل من لهث وديت ولهابة غلبه القول على الله بغير علم.

وصار من مسلمات مفسري العصر، المأخوذ عنهم بزعمهم والقابلهم (مثلاً):

١) أن الله لا يؤمنه من غضبه وعقابه إلا المصلحين، أما الصالحون فلا أمان لهم استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾، فإنه لم يقل: وأهلها صالحون.

وغاب عنه إدراكهم أن كلمتي ﴿الصالحين﴾ و﴿المصلحين﴾ وردتا في كتاب الله بمعنى واحد؛ قال الله تعالى في غير الأنبياء من بني إسرائيل: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾. وقال تعالى في عدد من الأنبياء: ﴿وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين﴾. وقال تعالى في الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. وورد وصف المصلحين بالصالحين (والعكس) في آيات كثيرة، ولكن التدبر قليل إذ شغل مكانه بالتنطع والتشدد والفرقة، وبالحفظ المجرد والتلاوة التي لا تتجاوز الحناجر. نسأل الله المغفرة والهداية للجميع.

٢) أن الله لا يضيف إلى نفسه من العباد إلا الصالحون، استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ وقوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

ولم ينتبهوا بعقولهم لحقيقة أن الكل عباد الله صالحهم وطالحهم؛ قال الله تعالى: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾. وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. وورد المعنى بلفظ ﴿عبادك﴾ و﴿عبادك﴾ و﴿عبادي﴾ في آيات وأحاديث كثيرة.

٣) أن الله قدم السمع على البصر بناءً على الخمسة الأولى في مثل قول الله تعالى: ﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾، وقوله تعالى: ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾.

فلم يزدهم مثل قول الله تعالى: ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ عن القول عليه بغير علم.

٤) أنه الله قدّم البشارة على الإنذار في وصف الرسل، ودليلاً على فضل الأولى (على الثاني) في منهج الدعوة، مستدلّين بقول الله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾، وقوله تعالى: ﴿بشيراً ونذيراً﴾.

وضافت أفهام بعض عن استحضار قول الله تعالى: ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾، وقوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾، وقوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ والآيات مثلها كثيرة.

والسبب الأول في نقص المدارك أنه العلم بشرع الله فقد الشمول والإحاطة والتدبّر (الذي كانه سمة للأئمة الأول ومن سار على نهجهم)، وملئ فراغه بالألقاب الدراسية المغرية والزي المبتدع، و"مسخت الجوامع" فتحولت جامعات لإعداد الموظفين.

ولأنه المطابع ودور النشر والمكتبات التجارية تقول دائماً: هل من مزيد؟ فإنه أدعياء العلم الشرعي مستعدون لاقتحام فرص الكسب منه الغنائم الباردة: منهجي منه النقل الحرفي والفكر الضحل، ثم يتوج الناتج بحفظ حقوق الطبع والتأليف، وحظر النقل والاقتباس، خلافاً للمثل المصري: "السرقة منه السرقة كالوارث منه أبيه".

ولأنه شباب ما يسمّى بـ"الصحوة الإسلامية" (بقوة حماسه وضعف بصيرته وقلة سنّه) مندفع لتشجيع واستهلاك كل ما يوصف بالإسلامي والإسلامية منه كتاب وشريط وخدمة تجارية؛ فإنه الورقية والكتاب والحركية والحزبية "الإسلامية" مستعدون لاستغلال فراغ وعطش وجهد بكتب التفسير وخطبه ودروس الفكرية، وتجييرها لمصالحه الفردية أو الحزبية.

والحصيلة النهائية: مساوئ كثيرة وخطيرة، أكبرها: القول على الله بغير علم في الحاضر، والمرونة على ذلك في المستقبل، إن لم يتدارك ولاة الأمر منه المسلمين (علماء وأمراء) لهذا الأمر، ويردّوه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه، وفقهاء صحابته وأئمة الهدى في القرون المفضلة. وصلى الله وسلم على محمد وآله وأصحابه.